كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في افتتاح السنة الأكاديميّة في "الجامعة للكلّ" UPT، في الأوّل من شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) ٢٠١٤ في تمام الساعة العاشرة.

أيّها الأصدقاء الأعزّاء،

معالي الوزير،

نوّاب الرئيس،

حضرة المدير،

سيّداتي سادتي،

حضرات الطلاّب الأعزّاء،

١. إنّه لمن دواعي سروري أن أكون موجودًا في بداية هذه السنة الـ ١٤٠ لتأسيس جامعة القدّيس يوسف ولمناسبة إطلاق هذه السنة الأكاديميّة في "الجامعة للكلّ"، مرحّبًا بكلّ واحد وواحدة منكم لخوضكم هذه المغامرة الجديدة لأنّ إدارة "الجامعة للكلّ" التي يديرها بشغف الأستاذ جيرار بجّاني أرادت أن تضعكم، أنتم الطالبات والطلاّب، في حالة تحدٍّ إذ يُطلَب منكم أن تواجهوا القدر الذي ينقضّ علينا ويدمّر حضاراتنا وذاكرتنا وتراثنا الثقافيّ والروحيّ وبالتالي، ما هو ثمين وقيّم، الكائن البشري الذي ينوء في منطقتنا في الشرق الأوسط تحت عبء مجزرةٍ تعيدنا أجيالاً إلى الوراء.

٢. اسمحوا لي أن أرحّب من القلب في بيته وبوجه خاصّ بالدكتور علي أحمد سعيد إسبر، الشاعر الكبير أدونيس، هذا المتخرّج الشهير من السنة ١٩٧٣، من معهد الآداب الشرقيّة. إنّ الطلاّب المتخرّجين من جامعتنا، كما هو الحال في شخصيّة أدونيس الذين يصنعون شهرة جامعتنا، هم أسياد البيت. إنّ أطروحة الدكتوراه "الثابت والمتحوّل في الثقافة الدينيّة" التي دافعتم عنها الدفاع المشرّف الباهر كانت المنطلق وهي اليوم في طبعتها الرابعة أو الخامسة لمدرسة الفكر النقدي حيال المفلهيم الدينيّة من حيث الفصل بمضمونها وحيويّتها. لا أستطيع اليوم أن أخفي مشاعري إذ أرى أنّ إهداء الكتاب خصّصتموه للبروفسور الأب اليسوعيّ من عندنا هنا من جامعتنا الدكتور بولس نويا المتخصّص بالروحانيّة السريانيّة والتصوّف الإسلامي، ناشر إبن عطاء الاسكندري والنفَّري وهذا علامة لما تشعرون به من عظيم مشاعر حيال كبار هذه الجامعة من اليسوعيّين والعلمانيّين، فشكرًا لحضوركم معنا، تشرّفونا بعملكم ومحبّتكم.

٣. وقبل أن أتحدّث في موضوع المؤتمر، "الفنّ كنقيض المكتوب"، أعود إلى مفهوم القدر وهو المُشار إليه بالقضاء والقدر، بمعنى أنّ كلّ شيء مكتوب مسبقًا ويكفي أن نرضخ له بلا معارضة. القدر ينهال علينا وهو لم يستأذننا لكي ينتشر ويعيد عالمنا بضعة قرون إلى الوراء. القدر لا يعطي مهلة استحقاق للتوقّف عن القتل ولا يعطي الفرص لتغيير مسار الأحداث. لهذا السبب نقول إنّ القدر محتوم ويُلغي كلّ إمكانيّة لابتكار معنى جديد. مع ذلك، يُتّخَذ قرار في نفس الإنسان الواعي والمحبّ للحكمة وهو : يجب محاربة القدر وايجاد منفذ لتغيير سير هذه الأحداث.

٤. هنا، يبدو الفنّ مضادًّا ومكافحًا للمصير المحتوم وفقًا للجملة الشهيرة لوزير الثقافة الديغولي السابق أندريه مالرو. الفنّ الشعريّ وفنّ الكتابة وفنّ الاحتجاج والتقاط الصور ورسم العالم وإخراج فيلم والتعبير عن الذات من خلال الإيماءات والكلمات، وفنّ تخطّي وتجاوز ما هو مكتوب دفعة واحدة، كلّها فنون تستند إلى ذاكرتنا وخيالنا وقدرتنا على الخلق وعلى فرض مسارٍ جديد للأشياء. اليوم، يتوجّب علينا محاربة الاكتئاب والرغبة في عدم التعمّق أكثر في كنه الأمور، ممّا يجعل البعض لا بل الكثيرين يقولون : لا مجال للعيش معًا ولا مكان لنا على هذه الأرض، فمن الأفضل مغادرتها. مع أنّنا يجب أيضًا أن نعيد إحياء العيش المشترك ونؤكّد وجود فنّ علينا تطويره وإتقانه لنعيش معًا ونكون مواطنين. نحن بحاجة إلى إعادة النظر في نسخة فنيّة لنصبح حقًّا فنّانين لأنّ الفنّ هو مسألة رجل وامرأة. فالفنّ يبدأ عندما ينظر المرء إلى نفسه ويجد أنّه غير مكتملٍ ويكتشف أنّ بإمكانه أن يشارك هو نفسه في إنجازه. العمل الفنّي هو علامة على وجود إنسان يحقّق ذاته. تحقيق الذات هو حاجة أساسيّة للإنسان، خاصّة عندما يكون مهدّدًا بالرفض في تحقيق ذاته، ويواجه تهديد الديكتاتوريّات الإيديولوجيّة أو الدينيّة أو المتلاعبة بكلّ ما هو حسن وجميل.

٥. "يبدأ الفنّ حيث العيش لم يعد كافيًا للتعبير عن الحياة"، هذا ما قاله أندريه جيد. الإنسان هو الكائن الوحيد القادر أن يشعر في ذاته بالفراغ. عندما يكون ملحدًا، يسلّم ذاته وحيدًا في قناعته هذه. عندما يكون مؤمنًا، عمله الشخصيّ هو علامة وامتداد لعمل الله. وهكذا، أمام العدم وأمام دعوة الكائن، تنتشر كلّ الصراعات الإنسانيّة من أجل الحريّة، ومن أجل جميع أشكال الأديان، وأيضًا جميع أشكال الفنّ. ينشأ الفنّ في وعيٍ للفراغ الذي يدعو الخليقة على الملأ لكي تجعل حدود العدم تتراجع وتتقهقر. ما قاله مالرو عن الفن كمضادٍّ للمصير المجهول وكانتصارٍ على القدر وكأغنيةٍ للنفس الحرّة يتطلّب وعيًا. وغالبًا ما يكون الشكل الذي يتّخذه الفنّ أملاً للقيامة. يجب أن يتمتّع الفنّ بوظيفة حيويّة وأساسيّة في المجتمع. ومن شأن عالمٍ يسكنه فنّانون أن يكون عالمًا ايجابيًّا دؤوبًا ومقاومًا، وعلبة ضخمة تحتوي عدّة أدوات. أخيرًا وليس آخرًا، يُعاش الفنّ بتعاطف، بكلّ ما لهذه الكلمة "تعاطف" من معنى "المعاناة مع...". إنّه عصارة الكلمة، تلك الكلمة الفعّالة والكلمة التي تجعل ما تعبّر عنه كيانًا وكينونة. يقول القدّيس يوحنّا : "الكلمة صار جسدًا". وهكذا، فإنّ الفنّان يجسّد الكلمة ولا ينقل معرفة، بل هو من الدالّ يشير إلى المدلول. وهو حين يؤلّف شعرًا، يبثّ روحًا ويجعل الأرض صالحة للسكن.

٦. لنكن جميعًا فنّانين في مكانٍ ما. حضور الشاعر أدونيس بيننا ليس دعوة لنصغي إليه فحسب، ولكن لنتعلّم منه أسرار الكلمة الكائنة أو الكينونة. إنّها خطوةٌ تدوس على القدر وتقهر المكتوب. أتمنّى لكم عامًا دراسيًّا جيّدًا.